

الطبيب الاصفهاني ومدحيته في المهدي المنتظر (عج)*

دكتور حسين مرعشي**

دكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها من جامعة القديس يوسف (بيروت)

(١٩٣ - ٢٢٠)

تاريخ الاستلام: ٩٠/١٠/٢٧؛ تاريخ القبول: ٩٠/١٠/١٨

الملخص

بدأت بوادر إحياء اللغة العربيّة في إيران بعد أن أتصل الملوك الصفويّون بالحوزة الشيعيّة في جبل عامل ببلنجان، ودعوا جمّاً غفيراً من علمائها للقدوم إلى إيران لدعم المذهب الإمامي، وإرساء أسسه فيها. وكان لهؤلاء الفقهاء الوافدين إلى إيران وتلاميذهم الفضل في إحياء هذه اللغة وانتشارها فيها. وكان الطبيب الأصفهاني، من شعراء العصرين الأفشاري والزندي وحكماء تلك الفترة البارزين، واحداً من الذين درسوا عند هؤلاء الفقهاء المهاجرين أو تلاميذهم في الحوزة العلميّة بأصفهان. وللشاعر أشعار عربيّة، منها مدحيته في المهدي المنتظر (عج). ودرسنا هذه القصيدة دراستين: داخلية وخارجية. وفي الدراسة الداخليّة التي تشكّل أساس البحث حاولنا أن ندرس الظواهر الأسلوبية التي تركت للشاعر بصمتها الشعريّة المتميّزة، وذلك وفق مستويات أربعة: عروضي وموسيقي، صرفي وتركيب، معجمي، وبلاغي. وقد تجلّت الأسس الجماليّة للقصيدة في مستويات ثلاثة: موسيقي وتركيب و بلاغي. واعتمدنا في الدراسة العموديّة للقصيدة (دراسة المستويات) على المنهج البنيوي الشكلي.

الكلمات الدليّة: الطبيب الأصفهاني، المهدي المنتظر، المحور، المستوى، التناص، التأثير والتأثر.

المقدّمة

* بحث مستخرج من أطروحة المؤلّف لنيل الدكتوراه عنوانها: الشعر العربي الديني بإيران منذ العصر الصفوي الثاني حتّى عصر القاجار.

** E-mail: hosein_marashi@yahoo.com

بدأت بوادر إحياء اللغة العربيّة في إيران بعد أن اتّصل الملوك الصفويّون (٩٠٧هـ.ق / ١٥٠٢م - ١١٤٨هـ.ق / ١٧٣٦م) بعامّة، والشاه عبّاس الصفوي (١٠٣٨هـ.ق / ١٦٢٩م) بخاصّة، بالحوزة الشيعيّة في جبل عامل بלבّان ودعوا جمّاً غفيراً من علمائها للقدوم إلى إيران لدعم المذهب الإمامي و توطيد أساطينه وإرساء أسسه وإحيائه فيها. وكانت هذه الحوزة تُعتبر أكبر مدرسة دينيّة للفكر الشيعي الإمامي في تلك الفترة. وقد كان لهجرة فقهاء الشيعة من لبنان، وبُعيد ذلك من البحرين، إلى إيران، واهتمامهم بالمدارس الدينيّة التي أرسوا قواعدها في عاصمة الصفويّين أصفهان، و في المدن الإيرانيّة الأخرى، الدور الأساس في تمهيد و إعداد أرضيّة صلبة، و في نفس الوقت خصبة، لإحياء اللغة العربيّة فيها. وإذا كان هؤلاء الفقهاء هم الرُّواد الأوائل لهذه اللغة في العصر الصفوي بإيران، فقد كان لتلاميذهم الذين نهلوا من معينهم في الحوزات العلميّة الفضل في نشر اللغة العربيّة ورواجها فيها، وذلك في الحقبة التي تلت ذلك العصر أي العصرين الأفشاري (١١٤٨هـ.ق / ١٧٣٦م - ١١٦٣هـ.ق / ١٧٥١م)، والزندي (١١٦٣هـ.ق / ١٧٥١م - ١٢٠٩هـ.ق / ١٧٩٤م). وكان شاعرنا الطيب الأصفهاني (١١٩١هـ.ق / ١٧٧٧م) واحداً من هؤلاء الذين درسوا في الحوزة العلميّة بأصفهان، وأخذوا اللغة العربيّة على الفقهاء المهاجرين أو تلاميذهم.

و للشاعر الأصفهاني أشعار عربيّة عدّة تغزّل في أكثرها، و هي تشكّل مادّة ثريّة وجيدة لدراسة الغزل والنسب في هذه الفترة. ومنها قصيدته في مدح الإمام الثاني عشر (عج) ابن الإمام العسكري (ع). و ارتأينا دراستها لأنّها تمثّل بحق صورة صادقة للغزل في ذلك العصر، ولأنّها تنطوي على مقدّمة نسبيّة أطول بكثير من الغرض الأساس وهو المديح، ولأنّها - حسب علمنا و وفق ما تعرّفنا عليه من مصادر - هي المدحيّة الوحيدة في المهدي المنتظر (عج) في العصرين الأفشاري والزندي، ولأنّها بإمكانها أن تُميّط اللثام عن جوانب مختلفة من العقيدة المهدويّة في تلك الفترة. فضلاً عن أنّنا يمكننا أن نتعرّف على ثقافة

الشاعر وموهبته الشعرية التي وظفها في خدمة تلك الثقافة .

و قد عالجتنا موضوع بحثنا وفق دراستين : دراسة داخلية وقد اتخذنا فيها المنهج
البنوي الشكلي لدراسة المستويات؛ ودراسة خارجية واعتمدنا فيها منهجين، هما: منهج
تاريخي، وذلك حين دراسة حياة الشاعر والتعريف بأعماله الشعرية؛ ومنهج موضوعاتي،
وذلك عند تحديدنا لبنية (نطاق) القصيدة وأغراضها ومضامينها .

و للتعرف إلى خصائص النسب عند الشاعر الأصفهاني والعقيدة المهدوية التي كان
يذهب إليها و ثقافته و موهبته الشعرية علينا أن نردّ على سؤال جوهرى، وهو: ما هي
المميزات الأسلوبية للقصيدة؟ وللإجابة عن هذا السؤال اعتمدنا على نظام المستويات
الأربعة، مصنفةً من أسسطها إلى أشدها تعقيداً، وهي: العروضي والموسيقى، والصرفي
والنحوي، والمعجمي، والبلاغي، من دون إهمال التناصّ ووظائفه معنىً وأسلوباً.
نوّد أن نشير هنا إلى أننا قد استندنا إلى بعض المجموعات المخطوطة غير المرقّمة
فذلك اضطررنا إلى ذكر اسم المجموعة من دون الإشارة إلى الصفحة التي راجعناها.

الطبيب الاصفهاني

هو محمّد بن عبدالله (١١٩١هـ.ق / ١٧٧٧م)، المعروف بالأصفهاني، عالم رياضي،
وطبيب خاصّ لبلاط كريم خان زند (١١٩٣هـ.ق / ١٧٧٩م) إبان حكمه بشيراز
(١١٦٣هـ.ق / ١٧٤٩م - ١١٩٣هـ.ق / ١٧٧٩م). (آقايزرگ الطهراني، ١٤٠٨هـ.ق: ج٦، ٧٨٠) وُلد في
مدينة جهرم في إقليم فارس، ودرس بأصفهان، وبسبب إقامته الطويلة هناك عُرف
بالأصفهاني. (فرست الدولة الشيرازي، ١٣٦٢هـ.ش: ١٠٥) والأصفهاني هو الذي رسم خريطة
جامع الوكيل بشيراز وحدّد قبلته. (م.ن.٠) وكان حسنَ الخطّ. (الأمين، ١٩٨٦: ج١٠، ٨١)
سُمّي بنصيرالدين الثاني أو نصيرالدين محمّد الثاني لتضلّعه في العلوم المختلفة .

أقوال العلماء فيه

إنَّ مؤرّخي الأدب والمترجمين للطبيب الأصفهاني، وإن لم يفصلوا شرح حاله وترجمة أحواله على نحو يليق بمقامه، ولكنهم لم يقصّروا في الإطراء عليه والتصريح بجميل فضله وعلمه المتدفّق وسطوع فضله الغزير وكونه من الحكماء البارزين والأطباء الحاذقين. وفيما يلي نشير إلى أهم ما قال فيه معاصروه.

وقد نعته آذربيجندي (١١٩٥هـ.ق / ١٧٨١م) بـ "مسيح الدهر وجالينوس العصر" لتضلّعه في الطبّ. (آذربيجندي، ١٣٧٨هـ.ش: ٦٥٩)

وقد وصفه الزُّنوزي (١٢١٨هـ.ق / ١٨٠٣م) في مجموعته رياض الجنّة ما نصّه: «كان عالماً، كاملاً، عارفاً، فاضلاً، متكلماً، حكيماً، مهندساً، فيلسوفاً، محققاً، مدققاً، ماهراً، بل مؤسساً في أكثر الفنون العقلية والنقلية والرياضية، سيّما في فنّ الطبّ علماً وعملاً. وكان أديباً، منشئاً، شاعراً بالعربية والفارسية، مُجيداً، بليغاً، فصيحاً، معاصراً، إلّا أنّه ما تشرّفتُ بزيارته وكان - رحمه الله - عند السلطان كريمخان الزند، مشغولاً بأمر الطبابة في بلدة شيراز، محترماً ومعزّزاً عنده وعند الناس، غاية الاحترام والإعزاز، إلّا أنّه كان شاكياً من الدهر الخوّان؛ لأنّ أمر الطبابة وخدمة السلطان، كان غير مناسب بشأن ذلك الفاضل العظيم الشأن وكان قابلاً ومستعدّاً للتأليف والتصنيف في كلّ فنّ في نهاية الحسن والكمال؛ إلّا أنّه بسبب الاشتغال بتلك الأشغال، لم يجد الفرصة له ولا مجالاً». (الزُّنوزي، رياض الجنّة، ٢٠١١م: ج ٥، ١٦٠ و ١٦١) و وصفه في مجموعته الكشكول قائلاً: "مفخر أهل عصره في العلم والحكم، ومظهر البدائع في حسن الخلق والشيم، الميرزا نصيرالدين الأصفهاني الطبيب - أثار الله برهانه". (الزُّنوزي، الكشكول) كما نعته في مجموعته الثالثة بحر العلوم بـ "مسيح الدهر" لمهارته وخبرته الفائقة في الطبّ أيضاً. (الزُّنوزي، بحر العلوم، ص ٢٢٢)

و وصفه عبدالرزاق الدُّنبلي (١٢٤٣هـ.ق / ١٨٢٨م) بـ «مسيح الملة والدين وأفلاطون الدهر وبطليموس العصر» (الدُّنبلي، ١٦١٨) لمكانته العالية في الطبّ والحكمة والفلسفة، وقال فيه:

«الكاتب البارع الشاعر الطبيب النطّاسي... الفاضل اللبيب والكامل الخطيب الأريب، كان في الحقيقة خاجة نصيرالدين الثاني، وكان مشاراً إليه في أقسام الحكمة من الهيئة والرياضيات والطبّ الجسماني والروحاني من الإلهي والمشائي والإشراقي فيلسوفٌ حاذق سيّد أيد صديق شفيق تضرب إليه أكباد الإبل وله إفادة وإفاضة في تقرير العلوم ماهرٌ في علم الطب. و بسبب مهارته في الطبّ وغيره طُلب من دارالسلطنة بأصفهان إلى شيراز، إلّا أنّه كان يطمح إلى الوزارة... ولعلّة عدم تميّز سلطان العصر وعدم مساعدة الدهر وعدم وصول أبناء الزمان بدقائق الكمالات النفسائيّة كان يتأسّف على حرمانه من أوطانه وإخوانه.» (الدُّبلي، ١٣٤٩هـ.ش: ج ١، ١٦٢ و١٦٣)

أعماله الشعريّة

و قد أكّد فرصت الدولة الشيرازي (١٣٣٩هـ.ق/ ١٩٢١م) - و هو من أحفاد الطبيب الأصفهاني ومؤلف كتاب آثار عجم - على أنّ جدّه ليس له ديوان شعر وإنّما تبعثرت قصائده في ثنايا بعض المجموعات الأدبيّة. (فرصت الدولة الشيرازي، ١٢٦٢هـ.ش: ١٠٦) وبدورنا قد عثرنا على عدد من هذه القصائد، ونأمل أن نصطنع له ديواناً إذا ما توفّرنا أكثر فأكثر على أشعاره الأخرى، وهي كالآتيّة:

١- قصيدة في مدح النبي محمّد (ص) (٧٥ بيتاً)

قد وردت هذه القصيدة في المجموعتين الأدبيّتين للزنوزي (١٢١٨هـ.ق/ ١٨٠٣م) هما من مقتنيات مكتبة مجلس الشورى الإسلامي بطهران، وقد وردتُ بأكملها في جُنْج [مجموعة] مهدوي التي طبعت مصوّرة، كما طبع بعضها ضمن كتاب تجربة الأحرار وتسليّة الأبرار لعبدالرزاق الدُّبلي (١٢٤٣هـ.ق/ ١٨٢٨م)، وأولّها:

إذا ارتبعت بوادي الحيّ في العَلَمِ قِف في الربوع على ربعِ بذي سلمِ

٢- قصيدة في مدح الإمام علي بن أبي طالب (ع) (٦٦ بيتاً)

وجدناها في نفس المجموعات الأدبيّة السابقة، وقد وردتُ بأكملها في كتابي رياض الجنّة للزنوزي نفسه وتجربة الأحرار وتسليّة الأبرار للدُّبلي، ومطلعها:

هذي منازلٌ خلّاني وجيراني يا صاحبيّ بذكرهم أجيراني

٣- قصيدة في مدح المهدي المنتظر (عج) (٤٩ بيتاً)

وهي موجودة في كتابي الزنوزي السابقين أيضاً، واستهلّها الشاعر بهذا المطلع:

أيا من يداوي الناس دغني ودائيا علاج مريض الهجر ليس التداويا

٤- قصيدة غزليّة (٤٨ بيتاً)

في مجموعة رقم ٧١٠١ بمكتبة مطهري (سيهسالار) بطهران قصيدة غزليّة للأصفهاني تشبه القصيدة السابقة. تبدأ القصيدة بالأبيات التالية:

ألا يا طبيبَ الناس دغني ودائيا علاج مريض العشق ليس تداويا

نسيم نواحي أصفهان دوائيا وصل أحبّاء العراق شفائيا

أيا حارسي شيراز خلّوا عن الصبا إذا جاوزت في السير تلك النواحيا

٥- قصيدة أرسلها إلى تلميذه في الطبّ والفلسفة، وصديقه وصاحبه في أصفهان، الشاعر

أحمد الحسيني المعروف بهاتف الأصفهاني (١١٩٨هـ.ق/١٧٨٣م) (١٤ بيتاً)

وهي موجودة في المجموعات الثلاث السابقة ومجموعة مطهري، إضافة إلى كتاب

رياض الجنة المطبوع، ومطلعها:

تناءيت عني يا خليلي غاويا وغادرت ناراً تلتظي في فؤاديا

ونجد في جُنگ [مجموعة] مهدوي إشارة إلى سبب إنشاد القصيدة إذ قال صاحب

المجموعة نقلاً عن خطّ الطبيب ما نصّه:

«وله، وقد كتب إلى بعض المخاديم من السادات بعد وصول مكتوب منه مشتمل على قصيدة

بليغة بهذا البحر وهذه القافية مطلعها هذا:

تجافى طبيبي نائياً عن دوائيا أخلاي خلّوني أبيتُ ودائيا»

(جُنْغ مَهْدَوِي، ص ٩)

و هذا البيت مطلع قصيدة غزليّة (٤٧ بيتاً) لهاتف الأصفهاني أوردها الدُّبْلِي في تجربة الأحرار، وقال فيه: "قال تمديحاً للحكيم الأعظم والصدر المفخّم والفاضل الأكرم هو الطبيب اللبيب الأريب ميرزا محمدنصير الأصفهاني". (الدُّبْلِي، ١٣٤٩هـ.ش: ج ١، ٣٢٦)

وردت القصيدة ناقصةً في ديوانه الذي جمعه وحيد دستجردي، وأوردها الدكتور فيروز حريجي، كما وردت في الديوان، في كتابه عن أشعار هاتف العربيّة. (حريجي، ١٩٦٥: ٥٦)

٦- قصيدة كتبها إلى بعض أصدقائه (نحتمل كونه هاتفاً) في أصفهان (١٧ بيتاً)

وجدناها في مجموعتيّ الزنوزي وجُنْغ [مجموعة] مهدي، واستهلّها الشاعر قائلاً:

زمان الجوى لَمّا تمطّى بصلبه
«و أردفَ أعجازاً وناءَ بكلّكلٍ»

و المصاريح الأخيرة من هذه القصيدة كلّها لامرئ القيس من معلّته المشهورة.

٧- مقطوعة بعثها إلى أحد أصدقائه (نحتمل كونه هاتفاً أيضاً) وكان منزله قريباً من نهر

زَنَدَرُودَ في أصفهان (٣ أبيات)

وقد وردت المقطوعة في المجموعات الثلاث السابقة وكتاب رياض الجنّة، وهي:

أيّا نسيَمَ الصبا إن تلقَ جيراننا
بزنَدَرُودَ حياتِ الواردِ الصادي

فاقرأ لصاحبنا في قرب شاطئه
ما شابَه الماءَ من نظمِ ابنِ عَبّادِ

«يا أصفهانُ سقيتِ الغيثَ من بلدٍ
يا زَنَدَرُودَ سقيتِ الغيثَ من وادٍ»

إنّ من يتأمّل هذه القصائد يجد لها خصائص مشتركة، ومنها: اهتمام الشاعر بالنسيب وذكر أحبّته وأخلائه وديارهم (أصفهان وزَنَدَرُود) أو تكرار الأبيات والمضامين أو اشتراكها في الوزن والقافية نأمل أن ندرسها في بحث لاحق بإذن الله. وما يهمنا هنا قصيدة الطبيب الأصفهاني في مدح المهدي المنتظر (عج) وخصائصها الأسلوبية.

مدحيته في المهدي المنتظر (عج)

نبدأ دراسة المدحية بقراءة سريعة. ولذلك سندون النصّ موزعاً على قسمين (مقطعين) متنوعين لكنهما متآلفين ومتحدّين على تشكيل بنية للنصّ متكاملة. كما نبرز المحاور المختلفة في كلّ قسم (مقطع) من خلال ترقيمها أبجدياً كي يساعد ذلك على وعي بعض جوانب الدراسة. ومن ثمّ نشير إلى المحاور الثانوية لكلّ محور وندرس الظواهر الأسلوبية لكلّ قسم ومحور على أساس نظام المستويات الأربعة. ونسعى أن نجد جسراً يربط أسلوب القصيدة الشعريّ بالمضامين التي يريد الشاعر إبرازها.

القسم الأوّل: النسب

- أ- ١. أيا من يداوي الناس دغني ودائيا علاج مريض الهجر ليس التداويا
 ٢. دواؤك عن داء النوى ليس شافيا وما بي غير الهجر إن كنت داريا
 ٣. نسيم نواحي زندروّد دوايا وصحة جيران العراق شفائيا
 ٤. أيا معشر الحراس خلّوا وربكم نسيم الصبا إن كان تلك النواحيا
 ٥. لعلّ الصبا تجلو إذا ما تنسّمت عليّ برياً أرضهم همّ باليا
 ب- ٦. بريد الحمى إن تأت يوماً ديارهم فبلغ إليهم ثمّ بلغ سلاميا
 ٧. سلام اشتياق من فريد مهاجر يبيت عن الأوطان والأهل نائيا
 ٨. سلاماً يؤدّي بعض وجدي ولوعتي إلى ساكني أرض العراق دياريا
 ٩. سلاماً غدا يتلو من الهمّ آية سلاماً أتى عن حرقة القلب حاكيا
 ١٠. فإن سألوا عني وعن حال مهجتي فقلّ بعد تبليغ السلام، مناديا:
 ١١. إليكم لكم منكم عليكم، أحبّتي حديثي دعائي ذكر قلبي ثنائيا
 ١٢. توقّد نيران الهوى بين أضلعي ومرّ عليها العمر وهي كما هيا

١٣. تشوّقتُ - في آناء يومي وليتني -
إليكم، كَمَن يدنو إلى الماء صاديا
١٤. سمعتُ بذكراكم فصرتُ كأنني
تجرّعتُ أقداحاً من الخمر حاويا
١٥. حكّتُ مقلتي سودَ السحاب كَلما
تذكّرتُ أيّاماً مضتُ ولياليا
١٦. فسقياً لعيشٍ قد مضى في وصالكم
وتبّاً لعمرٍ كان في الهجر باقيا
١٧. إلى الله قد أشكو زماناً معانداً
يعاؤقني عن نيل أقصى مراديا
١٨. سقاني بكأس الهجر ما مرّ طعمه
سقاه بها الرحمن ما قد سقانيا
١٩. ألا ليت شعري هل يعود الذي مضى
وهل قدّر الرحمن فينا تلاقيا ؟
٢٠. وهل لصريع الحبّ في الحيّ عودة ؟
وهل لسليم الهجر من بات راقيا ؟
٢١. وهل كان بالماضين ما بي من الهوى
وهل في النوى باتوا بحال كحاليا ؟
٢٢. غدا الدهر للأحباب داءً فليتني
عرفتُ لهذا الداء شخصاً يداويا
٢٣. ألا يا أخلائي! إذا ما ذكرتكم
فو الله ما أدري الضحى عن عشائيا
٢٤. أقول وإن كان الورى في مقالتي
يظنونني في مذهب الودّ غاليا:
٢٥. عليّ إذا جاد الزمان بمُنيتي
زيارتكم يا قوم بالرأس جاثيا
- ج-٢٦. قد استغرب النالون طُراً صبابتي
ووجدني ولهفي واضطرابي لما بيا
٢٧. يقولون: دَع شكوى الفراق إذ الورى
تعدّ الهوى داءً على المرء طاويا
٢٨. فوا عجباً! حتى يعيّر معشر
محاسن أمر المرء ظنّوا مساويا
٢٩. ألا أيّها النّصّاح! بالله ربّكم
ذروا النّصحَ عنكم «لا عليّ ولا ليّا»
٣٠. فهل يتسلّى بعدُ قلبي، وما أرى
صديقاً شقيقاً بل «عدواً مُداجيا» ؟
٣١. ويا معشرَ العُدّال كم تعذّلونني
دَعوا واسمعوا ما قلتُ بالصدق آتيا:

٣٢. إذا كان بالي عن أخلاي خاليا
٣٣. فقا نيك عند الرسم إذ قد بدا ليا
٣٤. ألا تسألان الدور: أين أحبتي؟
٣٥. فوالله صارت ليلة في فراقهم
٣٦. أيا دهر مهلاً بعض جدك في الأذى
٣٧. فكم تستعين الهجر فيما تريده

التخلص

٣٨. إلى الله أشكو منك يا دهر ساكنا
كفى ما بدا في علمه عن مقاليا

القسم الثاني: المديح

٣٩. وأستنصر المدعو في كل حاجة
٤٠. من اختاره الرحمن للخلق مرشدا
٤١. بدوراً لأفلاك المعالي لوامعا
٤٢. لرايات عز رافعاً بعد رافع
٤٣. ومن بالهدايات إماماً وحجة
٤٤. عن الحق بالسمر العوالي مدافعا
٤٥. يجر على الجرد الجياد كتائباً
٤٦. يصيدون أبطال الرجال كأنهم
٤٧. ومن في الورى أدعوه جهراً وخفية
٤٨. «أيا علم الإسلام والمجد والعلا
- ونوراً سيدي الحق بالقسط قاضيا
كأسلافه أعلام دين عواليا
نجوماً على أوج الكمال دراريا
لأركان مجد بانياً ثم بانيا
ومن في الورى يدعى أميراً وناهيا
إلى الله بالبيض القواطع داعيا
بنصب العوالي يخفضون الأدانيا
ليوث تصيد الشادانات الحواريا
أكر من نظم الرضي مباحيا:
رضيناك مهدياً لدين وهاديا»

٤٩. «عليك سلام الله أني لناظر إليك وراجٍ منك نيلَ رجائيا»

نظم الشاعر الأصفهاني القصيدة عندما كان طيباً في بلاط كريم خان زند (١١٩٣هـ.ق / ١٧٧٩م) في عاصمته شيراز، وذلك بعد مدّة طويلة قضاها في أصفهان. ويبدو من القصيدة أنّه كان يتشوّق إلى أصفهان وزيارة أصدقائه وأحبّائه هناك.

و للقصيدة تسعة وأربعون بيتاً، وهي تقسّم إلى قسمين أساسيين: النسب فالمديح:

النسب: الأبيات ١-٣٧

التخلّص: البيت ٣٨

المديح: الأبيات ٣٩-٤٩

و قبل أن نبدأ دراستنا حول المدحيّة نتناول موضوع طول قسميها الأساسيين. فإنّها تنطوي على مقدّمة نسبيّة طويلة تربو أبياتها على سبعة وثلاثين بيتاً أي ثلاثة أرباع أبيات القصيدة، وكانّ الشاعر أراد بذلك إبراز موهبته الشعريّة. وهناك من النقاد من يرى عدم جواز إطالة الممدوحة لأنّها تُنسي أولها؛ وقد نقل ابن رشيق (٤٥٦هـ.ق / ١٠٦٤م) عن أحدهم: "و قد حُكي عن عمارة أنّ جدّه جريراً قال: يا بنيّ! إذا مدحتهم فلا تُطيلوا الممدوحة فإنّه يُنسي أولها ولا يحفظ آخرها، وإذا هجوتهم فخالفوا". (ابن رشيق، ٢٠٥/٢) ورأى ابن رشيق نفسه أنّ "من عيوب هذا الباب أن يكون النسب كثيراً والمدح قليلاً". (م.ن.٠)

و بعد هذه الإطلاة السريعة نواصل بحثنا في دراسة القصيدة بدءاً من القسم الرئيسي الأوّل أي النسب ودراستيه: الداخليّة والخارجيّة.

أولاً - النسب

يحوي القسم الأوّل من القصيدة سبعة وثلاثين بيتاً تدور معانيها حول ثلاث ثنائيات

ضدّيّة:

- الشاعر / المرض (الأبيات ٥-١)

- الشاعر / هجر الأحباب (الأبيات ٢٥-٦)

- الشاعر / النُّصَاحُ وَالْعُدَّالُ (الأبيات ٣٧-٢٦)

و على أساس هذه الثنائيات الضديّة يقسّم القسم الأوّل إلى ثلاثة محاور رئيسيّة تدور المعاني فيها حول موضوع أمنيّة الشاعر وهي الوصول إلى أصدقائه وديارهم.

أ- الشاعر المريض

تشكّل الأبيات الخمسة الأولى المحورَ الرئيسيّ الأوّل إذ يشير فيه الشاعر إلى أنّه مريض، إلّا أنّه يطلب من طبيبه - وربّما يعني بالطبيب نفسه - أن لا يصرّ على علاجه وتناول الأدوية، لأنّه مريض بسبب ابتعاده عن أصدقائه وأحبّائه، لأنّهم في أصفهان إذ عاش الشاعر فترة طويلة من عمره، وهو في بلاط كريم خان زند بشيراز. ويرى الأصفهاني أنّ دواء مرضه هو تجديد زيارة أصدقائه وإخوانه.

و من الناحية الأسلوبية هناك أمور أفاد منها الشاعر ليوضّح هذا المعنى :

١- في المستوى الموسيقي نشير إلى الأمور التالية :

- وظّف الشاعر الموسيقى الخارجيّة لمطلع يائيّة المتنبي (٣٥٤هـ.ق / ٩٦٥م) المشهورة

في مدح كافور الإخشيدي (٣٥٧هـ.ق / ٩٦٨م) ليؤكّد على اشتداد أمره. ومطلع اليايّة هو الآتي :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

(المتنبي، د.ت: ج ٢، ٥٧٨)

و ربّما يرجع ذلك إلى أنّ الظروف التي رافقت إنشاد القصيدتين ظروف مشتركة، وكان

الشاعران حينه مصابين بمرض الهجر والحرمان من أوطانهما وإخوانهما حيث لا يجدان

لمرضهما علاجاً. فعندما فارق المتنبي سيف الدولة الحمداني (٣٥٦هـ.ق / ٩٦٧م) ورحل إلى

دمشق أحسّ بخيبة أمل شديدة فصارت أمنيته هي المنية إلى أن كاتبه كافور بالمسير إليه ؛

فعندما ورد مصر أخلى له داراً وخلع عليه وحمل إليه آلافاً من الدراهم فقال يمدحه وهو قد

وجد دواءً دائه.

- أورد الشاعر الأبيات الثلاثة الأولى ومصراعَيْها مقفأة، وتلك ظاهرة قلماً نجدها في بدايات القصيدة. نعم، قد نجدها في وسط القصيدة كالبيتين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين من القصيدة نفسها، وفي البيتَيْن التاليين من قصيدة امرئ القيس (٧٥ ق. هـ/ ٥٤٥م) المعروفة:

أ فاطمٌ مهلاً بعض هذا التدلّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صرمي فأجملي
أغرّك مني أنّ حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلبَ يفعلِ
(الأصفهاني، ١٩٩٢م: ج ٩، ٨٥)

٢- في المستوى التركيبي نرى أسلوب النداء مرتين:

- نداء الطبيب: أيا من يداوي الناس... (البيت ١)

- نداء حُرّاس [شيراز]: أيا معشر الحُرّاس... (البيت ٤)

٣- في المستوى المعجمي تلفتتنا الأمور التالية:

- يشمل المعجم الطّبيّ مفردات هي الآتية:

الداء، والدواء، والتداوي، ويداوي، والمريض، والعلاج، والشافي.

وهذا المعجم موجود عند الشاعر في سائر قصائده، والسبب مهنته ومعرفته بالطبّ الذي نرى بصماته في إنتاجات الشاعر الشعريّة. وفي المعجم فعل واحد وهو: يداوي. واستعمل الشاعر كلّ هذه المفردات في دلالاتها الأصليّة.

- في حقل المكان يلفت حضور كلمتي زَنَدَرُود والعراق (العراق العجمي): أصفهان وكرمانشاه و همدان و قم) كديار للمحوب. واستعملهما الشاعر في معناهما الحقيقي.

- يشمل معجم الرياح كلمات كالتالي:

النسيم، الصبا، نسيم الصبا، تنسّمْتُ

يلفت في المعجم ورود فعل تنسّمْتُ وهو بمعنى: هبّت الريح رويداً. واستعمل كلّ هذه

المفردات في معانيها الأصلية .

٤- في المستوى البلاغي نرى تشبيه الشاعر النسيم بالدواء، وصحة جيران العراق

بالشفاء . (البيت ٣)

و بين قوسين نشير ثانية إلى تأثر الشاعر الأصفهاني بموسيقى مطلع يائية المتنبّي (٣٥٤هـ.ق / ٩٦٥م) المشهورة في مدح كافور الإخشيدي (٣٥٧هـ.ق / ٩٦٨م) وتوظيفه في بيان ما أراد تبيانه . وكان الشاعر معجباً بوزن القصيدة ورويتها إذ نجدهما في سائر أعماله الشعرية . ويذكرنا البيت الثالث وذكر نسيم ديار المحبوب فيه بالبيت التالي لسعدي الشيرازي (بين ٦٩١هـ.ق / ١٢٩٢م و ٦٩٥هـ.ق / ١٢٩٦م) من قصيدة أنشدها بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ.ق / ١٢٥٨م، ورثى بها الخليفة العباسي المستعصم بالله :

نسيم صبا بغداداً بعد خرابها تمنيّت لو كانت تمرّ على قبري

(سعدي الشيرازي، ص ٧٢٩)

و يؤيد هذا الرأي قول سعدي الشيرازي بعد بيتين، وهو يشير إلى مرضه ورفضه مداواة

الطبيب إذ قال :

زجرتُ طبيباً جسّ نبضي مداوياً إليك، فما شكواي من مرض يبيري

(م.ن.٠)

ب- هجر الأحاب والتشوق إليهم

و في المحور الرئيسي الثاني الذي يشمل الأبيات السادس إلى الخامس والعشرين من القصيدة يتكلم الشاعر على حرمانه من أصدقائه وابتعاده عن أحبائه في أصفهان ويتشوق إليهم . وكان الشعور الذي سيطر على الشاعر بعد مفارقتهم هو خيبة الأمل وتغليب التخاذل على الإرادة . والإنسان في مثل هذا الشعور يؤوب إلى ذكرياته السابقة ويتمنى الرجوع إلى أصحابه ورفاقه . ويشمل هذا المحور محاور ثانوية كالتالي :

- يعيش الشاعر وحيداً بعيداً عن أصدقائه (البيت ٧)
- يُبلغ السلام إليهم (الأبيات ٩-٦)
- يتشوّق إليهم (الأبيات ١٦-١٠ و ٢٣-٢٥)
- يتمنى الرجوع إليهم (الأبيات ٢١-١٩)
- يشكو من الزمان لأنه حالّ بينه وبين أصدقائه (البيتان ١٨-١٧)
- و أفاد الشاعر، لتبيين هذه المواضيع، من الأساليب الآتية:
- ١- في المستوى الموسيقي يمكن الإشارة إلى أسلوب التكرار:
- تكرار السلام (الأبيات ٩-٦)
- تكرار صيغ صرفية وتراكيب نحوية في البيت السادس عشر:
- فسقياً لعيش قد مضى في وصالكم
وتباً لعمر كان في الهجر باقيا
- تكرار سقانيا / سقاها / سقانيا (البيت ١٨)
- تكرار الاستفهام (الأبيات ٢١-١٩)
- ٢- استعمل الشاعر صنعة اللفّ والنشر (البيت ١١) لوظيفة إيقاعية.
- ٣- في المستوى الصرفي نشير إلى صيغة تفعّل في الأفعال الآتية:
- توقّد، تشوّقتُ، تجرّعتُ، تذكّرتُ
- و لـ (التفعّل) معنى الكثرة والتضعيف، ويدلّ استعماله على ظروف الشاعر القاسية.
- ورأينا استعمال كلمة تنسّمّت في القسم الرئيسي الأوّل.
- ٤- في المستوى التركيبي يلفت انتباهنا:

- استعمال أسلوب الاستفهام موضع التمنيّ ستّ مرّات: ألا ليت شعري هل يعود الذي مضى؟... (الأبيات ٢١-١٩) وذلك أنّ الشاعر يوجّه سؤاله إلى ما لا يُرجى حصوله لاستحالة، من العودة إلى الماضي، والتلاقي مع الأحبة، و...؛ وهكذا ينزاح الاستفهام عن دلالاته الأصليّة التي وضعت له وهي السؤال للفهم إلى دلالة أخرى وهي التمنيّ. وإنّ سرّ التعبير في جمال أسلوب الاستفهام والعُدول إليه عن أسلوب التمنيّ تنبيه السامع في صورة السؤال ليدعوه إلى البحث عن الجواب حتّى يصل بنفسه ويتحرّك بحركة الوجدان.

- استعمال أسلوب النداء مرّتين: بريد الحمى... (البيت ٦)، ألا يا أخلّائي... (البيت ٢٢)

٥- يحتوي معجم هجر الأحباب والتشوّق إليهم مفردات، هي:

الفريد، الهجر، كأس الهجر، سليم الهجر، المهاجر، النائي، الوجد،

اللوعة، الودّ، الحبّ، الأحباب، نيران الهوى، الهمّ، حرقة القلب،

المهجة، الاشتياق، تشوّقت، ذكراكم، الوصال، النوى، زيارتكم

و للهجر ومشتقّاته دور أساس في المعجم. وفيه فعل واحد هو: تشوّقت.

٦- وفي المستوى البلاغي تستوقفنا الصور الشعريّة والمحسنات المعنويّة التالية:

- تشخيص نسيم الصبا: بريد الحمى... (البيت ٦) فيطلب منه الشاعر أن يبلغ سلامه

إلى أحبّائه في أصفهان. وقد شبّه الشاعر النسيم بالبريد وحذف المشبّه به وأبقى شيئاً من

لوازمه وهو الاتّجاه نحو ديار المحبوب على سبيل الاستعارة المكنيّة.

- تشخيص الزمان في البيتين السابع عشر والثامن عشر:

إلى الله قد أشكو زماناً معانداً يعاوقني عن نيل أقصى مراديا

سقاني بكأس الهجر ما مرّ طعمه سقاه بها الرحمن ما قد سقانيا

فيشكو الشاعر من الزمان، لأنّه هو الذي حالَ بينه وبين وصال أصدقائه، وهو الذي

سقاها شراب الهجر المرّ. وقد شبه الأصفهاني الهجر بشراب مرّ فحذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الكأس على سبيل الاستعارة المكنية.

- تشبيه سلامه بسلام إنسان مشتاق تشبيهاً بليغاً: سلامَ اشتياق ... (البيت ٧). والمشبه به (سلام) مصدر مبين للنوع.

- تشبيه القلب بشيء احترق تشبيهاً بليغاً: سلاماً أتى عن حرقة القلب حاكياً (البيت ٩)

- تشبيه الهوى بالنار تشبيهاً بليغاً: توقد نيران الهوى ... (البيت ١٢)

- تشبيه الدهر بداء الأحباب تشبيهاً بليغاً: غدا الدهر للأحباب داءً ... (البيت ٢٢)،
فيتمنى الشاعر الطبيب أن يجد دواءً له.

- تشبيه الشاعر وهو مشتاق برؤيتهم بصياد يقرب من البحر ليصيد الأسماك تشبيهاً
مجملاً: تشوقت في آناء يومي وليلتي ... (البيت ١٣)

- تشبيه عين الشاعر الباكية بكاء شديداً بسحاب سوداء تمطر بغزارة تشبيهاً مجملاً:
حكمت مقلتي سود السحاب ... (البيت ١٥). ويلفت في التشبيه استعمال فعل حكمت كأداة
للتشبيه.

- تشبيه الشاعر وهو يسمع ذكر أصدقائه بالذي شرب أقداحاً كثيراً من الخمر وسكر
تشبيهة تمثيل: سمعتُ بذكراكم فرصتُ كأنني ... (البيت ١٤)

- التضاد في الصريح/ السليم (البيت ٢٠)، وللتضاد هنا وظيفة إيقاعية أيضاً.

ج- النصّاح والعدّال

وفي المحور الثالث والأخير من هذا القسم (المقطع) أي الأبيات السادس والعشرين إلى السابع والثلاثين يشير الشاعر إلى نصيحة الناصحين وعدل العاذلين له ويردّ عليهم ويرفض كلامهم ويطلب منهم ليشاركوه في همّه وحزنه والبكاء على أحبائه. ويشمل هذا المحور محاور ثانوية كالتالي:

- استغراب من حوله من وجده ولهفه واضطرابه (البيت ٢٦)

- نصيحة أصدقائه الناصحين وردّه عليهم (الآيات ٣٠-٢٧)
- عذّل العاذلين له ورفض كلامهم (البيتان ٣١ و٣٢)
- الطلب منهم (الناصرين والعاذلين) كي يقفوا إلى جانبه ويسألوا دور الأحبة عن ساكنيها (البيتان ٣٣ و٣٤)
- عتاب الدهر، لأنّه هو السبب في مفارقتهم (البيتان ٣٦ و٣٧)
- ولترسيم الأمور الآنفة ذكرها استعمل الأصفهاني الأساليب الآتية:
- ١- في المستوى الموسيقي نجد الأمور الآتية:
- النبر في البيت السادس والعشرين إذ قال:
- و وجدّي / ولهفي / واضطرابي لما بيا
- و لا يوجد رابط موسيقي بين أجزاء المصراع الثالث، سواء في أجزاء التفعيلات أو حتّى في عدد الأصوات، بيد أنّ الإنسان يسمع فيه إيقاعاً متميّزاً، وذلك من أجل النبر الذي يظهر في قراءة حرف الواو في أوّل التفعيلة الأولى وبداية التفعيلة الثانية ونهايتها.
- تكرار (لا) في: ... لا عليّ / لا ليا (البيت ٢٩)
- إيقاع التجنيس في: النُّصاح / النُّصح (البيت ٢٩)، العُدّال / تعذّلوني (البيت ٣١)، بالي / وبالي / خالي (البيت ٣٢)، ليا / خواليا (البيت ٣٣)
- ٢- في المستوى الصرفي نرى وزن فُعّال ثلاث مرّات كالتالي:
- النُّصاح، العُدّال، الخُلّان
- و رأينا كلمة الحُرّاس في البيت الرابع.
- ٣- في المستوى التركيبي نجد أسلوب النداء ثلاث مرّات:

- نداء الناصحين: ألا أيها النَّصَّاح... (البيت ٢٩)

- نداء العاذلين: ويا معشر العُدَّال... (البيت ٣١)

- نداء الدهر: أيا دهرُ... (البيت ٣٦)

و في جميع هذه الخطابات يعاتب الشاعر المنادى إليهم ويرفض أقوالهم وأفعالهم.

ومنهم الدهر الذي شخّصه الشاعر فناده.

٤- وللنَّصْح والعُدْل معجم صغير كالآتي:

النَّصَّاح، النَّصْح، العُدَّال، تعذُّلوني

٥- في المستوى البلاغي يلفت انتباه القاري الآتي:

- تشخيص الدهر (البيت ٣٦). شبه الشاعر الدهر بإنسان رامٍ يرمي قلبه بالسهم فحذف

المشبه به وذكر بعض لوازمه وهو الرمي بالسهم على سبيل الاستعارة المكنية.

- التضادّ بين لي / عليّ (البيت ٢٩)

- يذكّرنا البيت التاسع والعشرون:

ألا أيها النَّصَّاحُ! بالله ربِّكم ذرّوا النَّصْحَ عنكم «لا عَلَيَّ ولا لِيَا»

و حضور عبارة: «لا عَلَيَّ ولا لِيَا» فيه بالبيت التالي من قصيدة المؤنسة لمجنون ليلي:

فيا ليتكم لم تعرفوني وليتني تخلّصتُ منكم لا عَلَيَّ ولا لِيَا

(ابن المبرّد، ص ٨٧)

و للتناصّ هنا وظيفتان: وظيفة معنوية إذ استعمله الشاعر في نفس المعنى الذي استعمله

المجنون، ووظيفة أسلوبية معجمية.

- يذكّرنا البيت الثلاثون:

فهل يتسلّى بعدُ قلبي، وما أرى صديقاً شقيقاً بل «عدواً مُداجياً»؟

و حضور عبارة: «عدوًّا مُداجيا» فيه بالمتنبي (٣٥٤ هـ.ق / ٩٦٥) و قصيدته في مدح كافور (٣٥٧ هـ.ق / ٩٦٨ م) إذ قال:

تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا أو عدوًّا مُداجيا
(المتنبي، ٥٧٨/٢)

كما يذكرنا بالشريف الرضي (٤٠٦ هـ.ق / ١٠١٥ م) و قصيدته في مدح الخليفة الطائع لله (٣٩٣ هـ.ق / ١٠٠٣ م) واستنهاضه في أموره و معاتبته على تأخيره لاستدعائه، وذلك عندما قال:

وإنَّ غريبَ القومِ مَنْ عاشَ فيهمُ وليس يرى إلَّا عدوًّا مُداجيا
(الشريف الرضي، ١٤٠٦ هـ.ق: ج ٢، ٥٨٨)

و للتناصُّ هنا وظيفتان أيضاً: وظيفة معنوية إذ استعمله الشاعر في نفس المعنى الذي استعمله الشاعران المتنبي و الشريف الرضي، و وظيفة أسلوبية معجمية.
- وظَّف الشاعر أبياتاً من معلقة امرئ القيس (٧٥ ق.هـ / ٥٤٥ م) المعروفة ليشدد على حزنه وأساه من مفارقة أحبته (البيتان ٣٣ و ٣٦).

و الجدير ذكره أنَّ خطاب الأصفهاني إلى صاحبيه (البيتان ٣٣ و ٣٤) وخطابه إلى مَنْ أذاه (البيت ٣٦) يذكرنا بمعلقة امرئ القيس المعروفة.

و في ضوء ما تقدّم نوّد أن نشير إلى أنّ لكلّ الثنائيات الضدية، في المحاور السابقة، طرفاً واحداً يتغيّر، والطرف الآخر هو الثابت وهو الشاعر الأصفهاني المقيم في شيراز والمحروم من أوطانه وإخوانه حين إنشاد القصيدة وهو الذي يأمل في الوصول إلى مُبتغاه أي زيارة أصدقائه وأحبائه على شاطئ نهر زندرود في أصفهان.

و أخيراً نعالج القسم الرئيسي الثاني والأخير للقصيدة وهو المديح. وذلك بعد البيت

الثامن والثلاثين (التخلص) الذي يشكو فيه الشاعر من الدهر إلى الله، وبذلك ينتقل من النسيب إلى المديح وهو الغرض الأساس للقصيدة.

ثانياً- المديح

و يتشكّل القسم الثاني من القصيدة من عشرة أبيات (الأبيات ٤٨-٣٩). وتدور المعاني في هذه الأبيات حول ثنائيه الشاعر / المديح . والمديح هو المهدي المنتظر (عج). ويمدح الشاعر في ثنايا مديح المهدي (عج) سائر أئمّه الشيعة الاثني عشر (ع) من دون ذكر لأسمائهم (الأبيات ٤٢-٤٠). أمّا الشاعر فهو الذي يريد النصر من الإمام (عج) في جميع حاجاته (البيتان ٣٩ و٤٧). وأمّا الإمام (عج) فقد وصفه الشاعر بالأوصاف التالية:

- الإمام مدعوّ في كلّ حاجة جهراً وخُفياً (البيتان ٣٩ و٤٧)

- الإمام عادل: نور سيّدي الحقّ بالقسط... (البيت ٣٩)

- الإمام مختار من قبل الله (البيت ٤٠)

- الإمام مرشد (البيتان ٤٠ و٤٣)

- الإمام وأنصاره مجاهدون شُجعان (الأبيات ٤٤-٤٤)

واستعان الشاعر، لإبراز هذه المعاني والصفات، من الأساليب الآتية:

١- في المستوى الموسيقي يمكن الإشارة إلى:

- تكرار البنية الصرفيّة كالتالي:

البيت الواحد والأربعون:

نجوماً على أوج الكمال دراريا

بدوراً لأفلاك المعالي لوامعا

و البيت الثاني والأربعون:

لأركان مجد بانياً ثمّ بانيا

لرايات عزّ رافعاً بعد رافع

و البيت الرابع والأربعون:

عن الحقِّ بالسُّمْرِ العَوَالِي مدافعاً إلى الله بالبيض القواطع داعياً

- النبر في البيت الثامن والأربعين إذ قال:

أَيَا عَلمَ الإسلامِ / والمجدِ / والعلَا

و يظهر النبر في حرف النداء في صدر البيت، وفي حرف الواو في وسط التفعيلتين الثالثة والرابعة.

- زحاف الكفّ في مفاعيلن فأصبح مفاعيلُ: هداياتِ (البيت ٤٣)، وهو قليل الاستعمال. وقد كُتِبَ في النسختين: الهداياتي تصدياً للزحاف.

٢- و في الأبيات الواحد والأربعين إلى الرابع والأربعين يوجد تكرار لتراكيب نحوية نستشف منها إيقاعاً متميّزاً.

٣- في المستوى الصرفي نجد جمع فواعل وفعالل وأمثالهما شائعاً في الأبيات كالاتي:

العوالي (٣ مرّات)، المعالي، اللوامع، الدراري، القواطع، الكتابب، الأداني، الحواري

٤- في المستوى التركيبي يمكن الإشارة إلى كثرة الجمل الاسميّة، وقد وردت الأفعال مضارعةً. ويدلّ ذلك على أنّ الشاعر صادق في اعتقاده بقيام المهدي (عج) قريباً.

٥- في المستوى المعجمي هناك حقول، وهي:

- حقل صفات المهدي (عج) وسائر الأئمّة الاثني عشر (ع):

المدعو، المرشد، أعلام الدين، الإمام، الحجّة، الأمير، الناهي، المدافع،

الداعي، علم الإسلام، (علم) المجد، (علم) العلّا، المهدي، الهادي

و قد استعمل الشاعر كلمة الأمير بمعنى الآمر وهو غير المعنى الذي وُضعت له. ويلاحظ

ورود كلمة العَلَم أربع مرّات مضافاً.

- حقل النور والنجوم، وهو المشتقّ من الحقل السابق، لأنّ لمفرداتها علاقة وثيقة

بالمهدي (عج) وسائر أئمّة الشيعة الإماميّة (ع):

النور، البدور، الأفلاك، اللوامع، النجوم، الدراري

- حقل الحرب، وهو معجم صغير يشمل المفردات التالية:

السّمرةالعوالي، البيض القواطع، جرّالكاتب

٦- في المستوى البلاغي تجدر الإشارة إلى:

- توصيف الشاعر المهديّ المنتظر (عج) وأسلافه، وهم أئمّة الشيعة الاثني عشر (ع)،

بكلمات تتناسب مع بعض (مراعاة النظر)، وذلك في البيت الواحد والأربعين:

بدوراً لأفلاك المعالي لوامعا نجوماً على أوج الكمال دراريا

- تشبيه الشاعر أئمّة الشيعة الاثني عشر (ع) بالبدور والنجوم، و تشبيهه المعالي

بالأفلاك، الكمال بأعلى السماء (البيت ٤١)، وذلك على أساس الاستعارة المكنّية. وكلّ

هذه التشبيهات معروفة قديمة.

- تشبيه أنصار المهدي (عج) بصيادين يصيدون صيدهم - وهو أعداؤهم - بسرعة

وسهولة كما تصيد الليوثُ الطباء الصغار (البيت ٤٦)، وهو تشبيه التمثيل.

- التضادّ في العوالي/ الأداني (البيت ٤٥)، وللتضادّ هنا وظيفة إيقاعيّة.

- وظّف الشاعر الأصفهاني شعر الشريف الرضي (٤٠٦هـ.ق/ ١٠١٥م) في مدح الخليفة

العبّاسي الطائع لله (٣٩٣هـ.ق/ ١٠٠٣م) لمدح ممدوحه وهو المهدي (عج) (البيتان ٤٨ و٤٩).

و من نافلة القول ثانية إلى تنصيب شعر الشريف الرضي في مدح الخليفة العبّاسي في

البيتين الأخيرين من القصيدة. وبذلك ختم الشاعر قصيدته المدحّية بخطاب المهدي (عج) والتماسه حتى يقضي حاجته، كما عمل في الابتداء بها إذ خاطب الطبيب الذي طلب منه أن يتركه مع مرضه، لأنّه مريض بسبب حرمانه من أوطانه وإخوانه وابتعاده عنهم، ولا يداوى هذا المرض إلّا بوصاله إليهم. وإنّ المهدي (عج) بات في خيال الطبيب الأصفهاني طبيباً يداوي مرضه ويتحدّى بإرادته وقدرته وحربه كلّ من يقف ضدّ الحقّ وهو الدين المحمّدي الحنيف.

وأخيراً، أنشد الشاعر الأصفهاني قصيدته هذه على بحر الطويل، وهو بحر معروف شائع في الشعر العربي. وفي قافيتها ألفان: ألفُ الإطلاق في نهاية البيت وبعد رويّ الباء، وألفُ التأسيس قبلها، وقد شاركت الألفان في خلق جوٍّ حافلٍ بالحزن والأسى يتناسب مع حالة الشاعر النفسيّة والتي تسبّبها فراقه من أصدقائه وتأسّفه على حرمانه منهم. وقد تأثر الشاعر في الموسيقى الخارجيّة للقصيدة من ثلاث قصائد يائيّة، وهي: قصيدة المؤنسة لقيس بن الملوح المجنون، وقصيدة المتنبّي في مدح كافور الإخشيدي، وقصيدة الشريف الرضي في مدح الخليفة العبّاسي الطائع لله. ورأينا كيف وظّف شاعرنا الطبيب الأصفهاني، في مدحيّته هذه، نصوصاً مستحضرة من هذه القصائد الثلاث لوظائف معنويّة وأسلوبية.

النتيجة

كانت غايتنا الأساسيّة في هذا البحث الإجابة عن سؤال رئيسي، وهو: ما هي المميّزات الأسلوبية لقصيدة الطبيب الأصفهاني في مدح المهدي المنتظر (عج)؟ فبعد تصحيح القصيدة وتحديد البني الأسلوبية فيها، وصلنا إلى نهاية المطاف لعرض نتائج البحث وآفاقه الجديدة.

إنّهم ما توصّلنا إليه من النتائج في هذا البحث هو:

١- كانت مراسلة (مراسلات) شعريّة عربيّة بين الطبيب الأصفهاني وتلميذه هاتف الأصفهاني، وكانا في فترة من الزمن صاحبين في أصفهان.

٢- إنّ الأسس الجماليّة للقصيدة تتجلّي في ثلاثة مستويات كالتالي :

٢-١- في المستوى الموسيقي رأينا دور قصائد للمجنون والمنتبّي والشريف الرضي ، و تكرار بعض الصيغ الصرفيّة والتراكيب النحويّة، وإيقاع التجنيس والتضادّ، والنبر، واللفّ والنشر في خلق موسيقى داخلية للقصيدة .

٢-٢- و في المستوى التركيبي لفت نظرنا الخطابُ والسؤالُ المستمرّان، وكانا متّجهين إلى الشاعر وغيره . واستعمل الشاعر الاستفهام بمعنى التمنيّ ستّ مرّات . ورأينا كيف وظّف الشاعر الجملة الاسميّة ليقول : إنّه صادق في عقيدته بقيام المهدي (عج) قريباً .

٢-٣- و في المستوى البلاغي استوقفنا أمران : التصوير المستمرّ للصور الشعريّة : التشبيهيّة والتشخيصيّة والاستعاريّة، و في الأخير ركّز الأصفهاني على الاستعارة المكنيّة . والآخ استعمال التناصّ الشعري بصورة مستمرّة أيضاً . وشاهدنا توظيفَ الشاعر نصوصاً مستحضرة من أشعار امرئ القيس والمجنون والمنتبّي والشريف الرضي لوظائف معنويّة وأسلوبية .

التوصيات

أوصي زملائي المختصّين في دراسة الشعر العربي عامّة، ونتاجاته في إيران خاصّة، بالتوجّه إلى شعر الطبيب الأصفهاني حيث لا يزال فيه مجال للكتابة، ولم يطبع من شعره إلّا القليل، ممّا يجعل البحث عن مخطوطاته وتحقيقها ودراستها ديناً عليهم . و في ما يلي إشارة عابرة إلى موضوعين جديرين بالبحث :

١ . أقتراح أن يقوم باحث بدراسة أساليب شعر الأصفهاني الشعريّة إذ إنّ في ذلك مادّة تصلح بحثاً علمياً .

٢ . كانت مراسلة (مراسلات) شعريّة عربيّة بين الشاعرين الطبيب وهاتف الأصفهانيّين، فيمكن أن تكون هذه المراسلة (المراسلات) موضوعاً لبحث آخر .

المصادر والمراجع

آذربيجدي، لطفعلي، آتشكده آذر، صححه: ميرهاشم محدث، ط١، إنتشارات أميركبير، طهران، ١٣٧٨ش.

آقايوزگ الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، حققه: علي نقي منزوي، ط١، مؤسسه إسماعيليان، قم، ١٤٠٨هـ.ق.

ابن رشيق القيرواني، الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، قدّم له وشرحه وفهرسه: صلاح الدين الهواري وهدي عودة، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٦هـ.ق/ ١٩٩٦م.

ابن المبرّد، يوسف بن حسن الحنبلي، نزهة المسامر في أخبار مجنون بني عامر، تحقيق: محمّد ألتونجي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٤هـ.ق/ ١٩٩٤م.

الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، شرحه وكتب هوامشه: عبد أ. علي مهنا، ط٢، دارالكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٢هـ.ق/ ١٩٩٢م.

الأمين، محسن، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه واستدرك عليه: حسن الأمين، لا طبعة، دارالتعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٦هـ.ق/ ١٩٨٦م.

جنگ مهدي (مصورة من المخطوطة الموجودة في مكتبة المرحوم أصغر مهدي)، باهتمام نصرالله پورجوادي، ط١، مركز نشر دانشگاهي، طهران، ١٣٨٠ش.

حريجي، فيروز، دراسة وجيزة حول أشعار هاتف العربيّة، ط١، مكتبة طهوري، طهران ١٩٦٥م. الدُّبلي، عبدالرزاق بيگ، تجربة الأحرار وتسليية الأبرار، صححه: حسن قاضي طباطبائي، ط١، مؤسسه تاريخ وفرهنگ إيران، تبريز، ١٣٤٩-١٣٥٠ش.

الزُّنوزي، محمّدحسن، بحر العلوم، لا ناسخ، مكتبة المجلس، طهران، ٢١٨٦، ٢٧٢ ورقة، ٢٦/٥ ٤١×، ٤٥ سطرًا.

_____، الكشكول، الناسخ المؤلّف، مكتبة المجلس، طهران، ٧٧٢٧، ٣٢١ ورقة، ٣٢×٢٢، مختلفة السطور.

_____، رياض الجنّة، تحقيق: علي الرفيعي العلامرودشتي وإشراف السيّد محمود المرعشي النجفي، ط١، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، قم، ١٤٣٢هـ.ق/ ٢٠١١م/ ١٣٩٠ش.

سعدى الشيرازي، مصلح الدين، كليات، تصحيح: جهانگیر منصور، ط١، شركة إنتشارات إحياء كتاب، طهران، ١٣٨٤ش.

الشريف الرضي، محمد بن الحسين، الديوان، ط١ [مصورة]، وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران، ١٤٠٦هـ.ق.

فرست الدولة الشيرازي، محمد نصير، آثار عجم، ط١، إنتشارات بامداد، طهران، ١٣٦٢ش.

المتنبي، أحمد بن الحسين، الديوان، شرح: عبدالرحمن البرقوقي وحقق الشرح عمر فاروق الطباع،

لا طبعة، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، د.ت.

مجموعة مخطوطة، الناسخ محمد حسين بن علي محمد [١٢٦٦هـ.ق / ١٨٥٠م]، مكتبة مطهري

(سيهسالار)، طهران، ٧١٠١، ١٥١ ورقة، ٢١×١٤، ١٠ أسطر.

Archive of SID

Surf and download all data from SID.ir: www.SID.ir

Translate via STRS.ir: www.STRS.ir

Follow our scientific posts via our Blog: www.sid.ir/blog

Use our educational service (Courses, Workshops, Videos and etc.) via Workshop: www.sid.ir/workshop